يوميات لاجئ: "هاربون إلى تايلاند"

إبن البلد

(هذه السلسلة تقوم على أحداث حقيقية)

القصة الأولى: القميص – الجزء الثاني

تايلاند، خارج مطار "سوانابو" – بانكوك. ديسمبر (كانون الأول) 2012. الثامنة صباحاً

لا أعرف من أين أتتني القوة.

وقفت ونظرت حولي، فرأيت تايلاند بمساحتها المترامية قد تحولت إلى سجن كبير، ووجب عليّ حفر نفق في جدران غير موجودة، لأخرج بأولادي بعيداً من هنا.

أمسكت هاتفي ورحت أبحث داخله بجنون.. وكأنه قطعة خشب ألقيت إلي في هذا البحر. "براني".. من يدري؟ قد تكون هي سبيلي للنجاة. كنت قد تعرّفت على "براني".. هذه المواطنة التايلاندية أثناء بحثي عن عمل. ورغم علاقتنا السطحية.. إلا أنني اتصلت بها فأتت وأخذتني مع عائلتي إلى بيتها حتى لا نفترش هذا الحطام الذي نمشي فوقه. لن أنسى فضل تلك المرأة ما حييت، ولو أنني بدأت ألاحظ عليها تصرّفات غريبة تجاه أطفالي. وبعد يومين، جاءت أختها وأخذتني على انفراد لترجوني كي أغادر بيت "براني"، وقالت إن لديها حالة نفسية تعتبر خطراً على من حولها وخصوصاً الأطفال. لم أنتظر حتى الليل.. كلّمت أحد أقاربي في الخليج وحوّل لي مبلغاً حتى أجد مكاناً على وجه السرعة بعيداً عن "براني".

وفعلاً.. صار معي بعض النقود لأشتري مطرقة صغيرة أحفر بها طريقي خارج هذا السجن. لم يعد أمامي إلا أن أجد الجدار الذي سأحفره. حتى لو استغرقني ذلك دهراً.. أنا سأخرِج أولادي من هذا الجحيم.

بعد كثير من الأسئلة.. سمعت بحي فقير اسمه "بتاناكان 20". كان هذا الحي صغيراً ومهمشاً بمحاذاة نهر جميل، تنتشر فيه بسطات مطاعم فقيرة ومتواضعة. لكّنه حيّ يقطنه المسلمون.. هل تدرك قيمة مشاهدة كلمة "حلال" على جدار مطعم في تايلاند؟ أو أن ترى امرأة محجّبة ومئذنة مسجد؟ أو تتخيل أنك تستطيع شراء الفطائر لأولادك مجدداً؟ ربّما تظن أن هذا شيء طبيعي في الحياة، ولكن ليس بعد أن تشاهد أناساً يصلّون لأي شيء، في مجتمع غريب عليك أخلاقياً ودينياً واجتماعياً.

عندما وصلنا ذلك الحي.. رأيت زوجتي تبتسم. أنا فعلاً لا أذكر متى كانت آخر مرّة ابتسمت فيها زوجتي. في هذا الحي بنايات ضخمة يسمونها "الفنادق"، وذلك لأنها تضم عدداً لا متناهياً من الغرف الصغيرة. حجم الغرفة لا يتجاوز ثلاثة أمتار مع حمام وبلكونة. الغريب.. أن البلكونة هنا تعد بديلاً عن المطبخ. بصراحة.. لم يكن أمامنا إلا القبول بهذا الوضع الصعب. فبالنسبة لي.. هذه الغرفة الصغيرة

هي موطئ قدم لأبدأ عملية الحفر.

ما إن أمّنت سقفاً لن يسقط على أولادي، وأرضاً لا يشكّلها حطام منزلي، حتى تركت عائلتي وانطلقت لأبحث عن عمل من جديد. ولكن هذه المرّة.. لم يكن خيار مغادرة تايلاند موجوداً بالنسبة لي. إما أن أجد عملاً.. أو أموت جوعاً مع أولادي. صحيح أن وضعي لم يعد قانونياً هنا، وأنني عرضة للاعتقال بأي وقت.. لكن الأمر لا يختلف كثيراً عن حفر نفق في جدار السجن. سأحفره حتى لو كان الجميع يراقب.. ويعرف أنني سأهرب يوماً. وها أنا ذا هنا.. مستعد للوقوف والحرب من جديد.

حصلت على مقابلة عمل في مكان قريب من شارع العرب، وهو شارع يعتبر مجمعاً كبيراً للدعارة ومختبرات الأسنان وكل ما تراه متناقضاً.

في المخبر.. انبهروا بمهارتي، وقرروا تعييني دون أي تأمين أو تسجيل.. واتفقت مع صاحبة المخبر أن تعطيني راتبي نقداً بدلاً من تحويله إلى البنك، وهي بدورها خاطرَت بالسماح لي أن آتي لمختبرها كل يوم رغماً عن القانون. في النهاية.. هي تعرف أنني شخص موهوب في عملي.. وتدرك بأنني لن أطلب الكثير، فهي بحاجة خبرة أجنبية تختلف عما يعرفه التايلانديون هنا. عدت لزوجتي في المساء ومعي خبر الوظيفة.. وكيس قهوة صغير كنت أشتريه لها في المخيم.

بدأنا نتأقلم مع الوضع قليلاً.. وصرت أعرف أنني لن أنام خائفاً من فقدان أحد أطفالي جوعاً. لكن أكبر خوف واجهني كل يوم.. هو أن تمسك بي الجوازات وأسجن في هذا البلد.

بعد أن بدأ الأمل يعود إليّ من جديد.. بدأت بتقديم أوراقي إلى مفوضية اللاجئين.. ولكن كان أمامي أغرب مهمة واجهتها في هذه الرحلة.

لم أستغرب كثيراً من رؤية السجود للحجر، ولا من غرفة لا مطبخ فيها، ولا من أنقاض دُفنّا تحتها.. استغربت من طلب المفوضية بأن أثبت أنني لاجئ! فبعد أن سألني موظف المفوضية "لم تريدني أن أعتبرك لاجئاً؟".. لم يكن لدي جواب حقيقي سوى الصمت. ماذا أقول فعلاً؟ إن لم أكن لاجئاً.. فمن غيري يستحق هذا الشرف؟

بعد أكثر من اجتماع أخبرتهم خلالها بحكايتنا.. حصلت على ورقة لاجئ. لم أفرح يوماً بحصولي على هذا اللقب الكبير كما ذلك اليوم.

تلك الورقة الصادرة من الأمم المتحدة.. لم تكن لتحمينا فعلاً هنا. فمن الطبيعي جداً أن يتم زج النساء والأطفال في السجن دون تردد في تايلاند لمجرد مخالفة قوانين الهجرة والتأشيرة. لأن الحكومة ترى أن وجودك هنا غير شرعي وليس لديك تأشيرة أو حق بالبقاء. أنت موجود هنا على مسؤوليتك الشخصية وحتى إشعار آخر ينتهي بقبض الجوازات عليك. ومجدداً قفزت الخيارات أمامي.. إما أن أخاطر كل يوم في الطريق إلى عملي، أو أشاهد أولادي يموتون جوعاً. وإما أن أبقى في هذا السجن.. أو أكمل عملية الهروب الكبيرة. الفرق بيني وبين السجين، أن وجوده في السجن شرعي.. أما أنا فلا وجودي هنا ولا هروبي من هذا المكان شرعيان.

بدأت معاملة اللجوء بالتحرّك البطيء.. وكانت المعاملة في هذه المرحلة مجرّد رحلة بحث عن دولة

أجنبية لديها الاستعداد والقدرة على قبول بعض عائلات اللاجئين حتى تطلق رصاصة الرحمة على مصطلح "لاجئ".

تايلاند، حي "بتاناكان 20 – 22 مايو (أيار) 2014.

تحوّلت الأشهر إلى سنوات بينما كانت معاملة اللجوء تتحرّك ببطء شديد أقرب للتوقف، ثم تعثرت تلك الخطوات البطيئة بانقلاب أبيض، لكنه كان كفيلاً بإيقاف البلد لبضعة شهور. وبينما اختبئ الناس خلال تلك الشهور داخل منازلهم.. كنت أواصل الذهاب إلى عملي متسللاً عن طريق النهر كل يوم حتى لا يتوقف رزقي.

وكأن الهروب من الجوازات لم يكن يكفي بعد الانقلاب، فما لبثت الحكومة الروسية أن أخبرت الحكومة التايلاندية عن وجود مجموعة إرهابيين مختبئين في تايلاند كلاجئين سوريين. وخلال ساعات.. صرنا طرائد للشرطة والجيش والجوازات معاً، وتلك الورقة التي كنت أحتفظ بها في جيبي لتنقذني، تحوّلت إلى تهمة أكبر. إذ بدأت عمليات المداهمة بسيارات الجيش لبنايات العرب، وتم سجن كثير ممن أعرفهم. منهم من أخذ على مرأى من أطفاله.. ومنهم من أخذ مع أطفاله.

صار الموضوع ممنهجاً وعرفت أن دورنا قريب، فأخذت زوجتي وأولادي في أحد الأيام السوداء تلك.. وهربت بهم لنختبئ في أحد المساجد الصغيرة. كان يوماً مرعباً فعلاً، فقد بدأت أخشى بأن يُكشف النفق الذي حفرت جزءاً كبيراً منه. لم أعرف وقتها أيهما أكثر رعباً، أن أسجن مع زوجتي وأولادي، أو أن تتوقف محاولاتي للخروج من هذا السجن.

ذلك النهار الطويل انقضى أخيراً بعد أن كانت الثواني تنهال على أعصابنا. ثم تسللنا كالمجرمين من طريق النهر مجدداً، نجري ونختبئ بين أشجار الموز. هذا النهر الجميل هنا، لم يعد مجرّد إطلالة أسرح خلالها بناظري إلى دمشق وأشم عبره قهوة خالتي أم سعيد، وأتأمل الورود في قميص زوجها، بل تحول إلى ممر للتسلل والهروب كل يوم. استمرت عمليات المداهمة أسبوعاً، فاضطررت أن آخذ أولادي بضعة أيام إلى "بتايا" حتى هدأت الموجة باعتقال كثير ممن أعرفهم. وتقريباً لم يبق فلسطيني أو سوري سوانا في تلك الفترة لم يودع في السجن. في حالات كهذه، ينتابك مزيج غريب من الأحاسيس، فأنت تشعر بالراحة أنك نجوت، وبالذنب لراحتك على حساب غيرك، فهم أودعوا السجن حتى تنجو أنت. تم جمع تبرّعات كثيرة من الشعب التايلاندي المهتم بالقضايا الإنسانية وخصوصاً السورية منها. شارك الكثير منهم بمختلف أطيافهم الدينية ورغم فقرهم، وبغياب أي مجهود من الحكومة التايلاندية وعدم توقيعها أي اتفاقيات مع الأمم المتحدة بخصوص اللاجئين.

وما إن بدأت الأمور بالتحرّك من جديد، حتى انهال رفض السفارات الأوروبية لملفنا. كان كل رفض بالنسبة لي بمثابة حجر حديدي في وجه مطرقتي الخشبية. لم تكن المسألة في إعادة ملء أوراق جديدة فحسب، بل في أن تعيد الأمل من جديد، تربّيه طفلاً وترسم مستقبله في خيالك، تبدأ بالتخطيط لحياتك المستقبلية في جغرافيّة ما، ثم تمحوها بجرّة قلم وختم "رفض" صغير، لتعاود الأمل من جديد.

ثم تحوّلت أوراقنا إلى السفارة الكندية. وبدلاً من أن تمضي المعاملة بسلاسة تقديراً لوضعنا كلاجئين، وعلماً أننا نستوفي كل شروط اللجوء.. كانت تزحف كأنها لا تزحف. هل تعلمون أن للجوء شروط

أيضاً؟ نعم.. فهذا يا سادتي شرف كبير يستحق أن تكون له شروط.

**أحد الشواطئ التركية مقابل اليونان – 2
سبتمبر (أيلول) 2015.**

ذاك اليوم.. فتح العالم عينيه على مشهد طفل نائم ببراءة فوق رمال ذهبية، والأمواج تقبّل وجهه جيئة وذهاباً كأنها تكفّر عن ذنب أو جريمة ما. اسمه "ايلان". بلباسه الكامل وحذائه الصغير الواعد بخطوات كثيرة فوق هذه الأرض، أغمض عينيه إلى الأبد. كان من الصعب استيعاب الفكرة. وأنا كباقي هذا العالم.. شاهدت بصمت شابته بعض الدموع. فكّرت يومها بأنني واحد من هؤلاء اللاجئين، وأن خياري في تفضيل تايلاند على البحر كان سليماً. غرقُ هذا الطفل وأمه لم يصفعني فحسب، وإنما صفع بعض المسؤولين عن معاملات اللجوء في كندا بالتحرّك، إذ أن عمّة ذلك الطفل كانت قد بدأت معاملة لجوء له ولعائلته، وبسبب تلكؤ الحكومة الكندية، اعتُبرتْ مسؤولةً بشكل أو بآخر عن الحادثة، وهذا ما اضطرها لقبول ملفات ٤٠ ألف لاجئ سوري بسرعة غير معهودة.

نعم.. كان ملفي واحداً من تلك الملفات.

**على مدرج الطيران في مطار "سوانابو" – 15
أغسطس (آب) 2016.**

أنا لم أكسر رغم كل محاولات كسري.. ها أنا على الجانب الآخر من ذلك الجدار الوهمي، ما زلت أحمل بقايا مطرقة صنعتها من عمري وطفولة أولادي. نجلس في طيارة متجهة خارج تايلاند، وأضم عائلتي بجناحي كغنيمة حرب. أنا في الحقيقة مدين حتى اللحظة لـ"براني" التي كانت ستؤذي أبنائي، ولمطرقة وجدار لم يكونا موجودين أبداً.. ولعائلات سجنت حتى أنجو بعائلتي.. ولطفل غرق حتى ينقذ شعوباً. هل تدركون كم أحمل من ذنب فوق أكتافي.. رغم أنني لم أقترف أياً من تلك الذنوب؟

نظرت حولي.. ورأيت في الكرسي المجاور رجلاً يرتدي قميصاً موّرداً يحمل الأمل وحبّ الحياة، لكنه ليس عمّي أبي سعيد. فهذا رجل أجنبي كان هنا في رحلة سياحية.. وها هو يغادر بزوادة ذكريات جميلة. هذا الرجل.. لم يكن مثلنا مضطراً لحفر جدار، ولم يحمل قطعة سقف يوماً، ولا شهادة لجوء.. ويسافر بلا ذنوب.

ـ النهاية –